العرب
الجمعة 2019/10/11
السنة 42 العدد 11494

شوقي الماجري.. شاعر الكاميرا العربية

الدراما التلفزيونية تخسر حساسية سينمائية نادرة

كان الراحل يروي بالصورة ما يحبه وما يجب أن يقال

فجيعة ألّمت بالأوساط الفنية والثقافية في تونس والعالم العربي، فلقد غيّب الموت، صبيحة الخميس، المخرج التونسي شوقي الماجري إثر نوبة قلبية عن عمر ناهز الـ58 عاما. وخسرت الدراما العربية واحدا من أهم دعائمها ومطوريها، ذلك أن الرجل كان يشتغل بحساسية سينمائية فائقة الخصوصية في نظرته الجمالية، بالإضافة إلى كونه يمثّل نموذجا متفرّدا للعمل العربي المشترك في الدراما التلفزيونية، وصاحب رؤية تتميّز بالشعرية والمعالجة غير التقليدية للمواضيع الراهنة.

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

"الموت ضرب من القتل"، عبارة المتنبي هذه، يتذكرها دائما صديقي المخرج التونسي شوقي الماجري، صاحب "دقيقة صمت" الذي عرض في رمضان الماضي، حين يفجع بوفاة قريب أو صديق. وكان آخر الغائبين من حياته منذ أسابيع، والدته الأمية البسيطة التي يقول عنها دائما بأنها مرجعيته الأولى، وصديقه غلادياتور السينما التونسية، وراهبها البشوش، نجيب عياد، الذي أنتج له "مملكة النمل".. ويستعدّ الاثنان لعمل قادم، ولكن.. أليس الموت ضربا من القتل.

تعلّم شوقي الماجري من والدته في باب سويقة، أعرق أحياء مدينة تونس، وأكثرها صخبا واحتفاء بالحياة، كيف يروي بالصورة ما يحبه، وما يجب أن يقال. اعتبرها مرجعيته الأولى ووضعها في مراتب أساتذته الذين أخذ عنهم أثناء دراسته في المعهد الوطني للسينما والمسرح والتلفزيون (لودز) ببولندا، من أمثال فويتشيخ هاس، والمخرج هنريك كلوبا، أما في الوثائقي، وفن تأريخ الإحساس فكانا المعلّمان فواديسواف فاشيليفسك، وكا جيميج كاراباش.

كان هذا بعد دراسته في المعهد الصادقي، العريق بمدينة تونس في ثمانينات القرن الماضي، وما رافق تلك الفترة من شغف بفنون السينما والمسرح ضمن نوادي الهواة التي التصقت بجيل كامل إلى حدّ الهوس، وأفرزت أسماء ميّزت تونس الآن، كبلد حماه وحصّنه اليسار الثقافي (وليس السياسي) من كل نزعات التطرف والسلفية.

تمرد مبكر

عاد شوقي الماجري، إلى تونس بعد حصوله على درجة الماجستير في الفنون السينمائية من بولندا، رفض إغراءات البقاء والعمل مع أساطين سينمائية كبيرة هناك أملا في قول "الموال الذي في رأسه" ببلده، لكن اللوبي الذي كان يسيطر على قطاع السينما في تونس منعه من ذلك، ضمن فرز سياسي وثقافي ومناطقي مقيت، يسيطر عليه الفرانكفونيون، ويحتكرونه على حساب من تكوّن خارج تلك المنظومة الخاضعة لإملاءات وشروط إنتاجية، كان الماجري، ابن باب سويقة المتمرّد، لا يؤمن بها، ولا يحب العمل تحت جناحها.

دفع شوقي الثمن من ظروف عيشه، وصار عاطلا عن العمل في مقاهي تونس يشبه شخصيات أفلامه التي حلم بإنجازها. اكتفى بأفلام قصيرة كلما سنحت له الفرصة مثل "البريد ومفتاح الصول".

جاءه البريد من دمشق، وانفتحت أبواب الفرج، فدعاه المخرج والممثل ومدير شركة شام للإنتاج التلفزيوني التي يمتلكها أبناء عبدالحليم خدام آنذاك، أيمن زيدان، وباقتراح من الممثل التونسي فتحي الهداوي، الذي سبقه إلى هناك.

كان مسلسل "تاج من شوك" أولى الأعمال الدرامية التي أخرجها شوقي الماجري في سوريا.

بعد الاستغناء عن نجدت أنزور، نجم تلك المرحلة في المسلسلات التي تبشّر بالصورة وحركة الكاميرا كبديل عن النسخ الكلاسيكية المعتمدة على السرد والحوارات. النتيجة كانت مذهلة في الأوساط النقدية التي تثقّفت وتربّت على الثقافة السينمائية المتطوّرة، لكنها كانت مربكة لمدراء الإنتاج من الذين يحسبون المردود بساعات التصوير والإنجاز.

كان شوقي يصوّر وفق المدرسة البولونية في السينما، فيطيل النظر والتأمل خلف المونيتور، حرصا على نقاء الكادر وجماليته برفقة مدير تصويره الشهير أزفيتش، الذي رافقه في أعمال لاحقة، وشكل الرجلان ثنائيا صانعا للدهشة، ولكن بإيقاع "دب روسي".

في «هدوء نسبي» فعل شوقي الماجري، بكاميرته ما عجزت عنه لقاءات القمّة.. لقد جمع العرب في شاشة واحدة

تململ الجهات الإنتاجية من طريقته في العمل، لم يدم طويلا أمام النتائج والجوائز التي حصل عليها. وأدرك الجميع أنهم إزاء مخرج استثنائي، شاعر من "أصحاب الحوليات" خلف الكاميرا، يقول صورته بصبر وأناة، ولكن بإتقان يبلغ الدهشة.

توالت العروض على هذا المخرج الشاب المتواضع الخجول في أعمال تلفزيونية كثيرة، لكنه كان يعشق السينما، ويعتبر التلفزيون -رغم جماهيريته- قدرا أحمق الخطى بالنسبة لشخص قادم من زخم حي "باب سويقة" ونوادي السينما المبعثرة في تونس.. وذاكرة أمه التي ما تنفك تتحدّث إليه في غياب أبيه صغيرا، عن أجداده من قبيلة "ماجر" الشهيرة بفرسانها وملاحمها.

يتحيّن شوقي كل فرصة تعرض عليه في السينما، حتى ولو كان فيها خاسرا على الصعيد المادي.. النقود لا تهم هذا الرجل المسكون بالفن السابع، بقدر ما يهمّه إنجاز فيلم يشفي غليله فيه، ذلك أنه كان يقول لي دائما معزيا نفسه "يكفي أن أغنم 10 دقائق من السينما الخالصة في ساعة تلفزيونية".

حلم الماجري، أن يصنع شريطا عن جده الأول علي بن غذاهم، الذي ثار ضد الأتراك العثمانيين في تونس عام 1864 أيام حكم الصادق باي (الذي سميت باسمه المدرسة الصادقية).. أليس هذا من مفارقات التاريخ لدى هذا الرجل الذي تشبّع بأدب الروس من بوشكين إلى تشيخوف؟

حلم كذلك بأن ينجز عملا ملحميا عن سيرة القائد القرطاجي حنبعل.. وأحلام كثيرة أخرى همس لي بها في ساعات الصفاء، وطلب مني كتابتها، لكنني كنت كسولا، وكان الزمن مستعجلا، والموت قاتلا غير رحيم.

لدى شوقي الماجري في كل أعماله، ثيمة تتكرر، وكأنها قادمة من حلم أو كابوس.. إنها الحصان الجامح الذي يصهل ويقتحم بعض المشاهد دون مبرّر منطقي في ذهن المشاهد العادي. تكرّر هذا في العديد من الأعمال مثل مسلسل "أسمهان" في حادثة الغرق، وغيره من الأعمال، ولو بإيماءات متفاوتة، تطل وتظهر، مثل"شهرزاد الحكاية الأخيرة" ثم "الطريق الوعر" و"الأمين والمأمون" و"الاجتياح" و"أبوجعفر المنصور"، وحتى "نابليون والمحروسة" عام 2012 ومسلسل "حلاوة روح".

جامع العرب

سنتوقّف عند عمل لشوقي الماجري، لعله يشي بطريقته في التفكير والإخراج، وهو مسلسل "هدوء نسبي" الذي يتحدّث عن الاجتياح الأميركي للعراق: شاهدنا "بهلول" آخر في عاصمة الرشيد.

> الماجري كان يعتبر التلفزيون قدرا أحمق الخطى بالنسبة لشخص قادم من زخم حي باب سويقة ونوادي السينما المبعثرة في تونس

شاهدنا الممثل عابد فهد، كنمر هوليوودي بامتياز، يطفئ الشمعة عند سقوط بغداد، وينظر إلى أسماك دجلة وهي تحتجّ احتضارا.. ثمّ يبحر في قصّة حب أخرى مع مصر عبر نيللي كريم التي صار يصعب علينا تخيّلها أمام عدسة أخرى.

شاهدت صديقي جوّاد الشكرجي وهو يرثي بغداد بعينيه وبصمته المسالم. شاهدت نيللي كريم وهي تستحمّ بدموعها تحت المياه، شاهدت باسم قهّار وهو يعزف شهقة القصف والاحتجاج. كيف لي أن أنسى مشهد الضابط الذي "خرطش" سلاحه أثناء الاجتياح، نظر إلى صورة الحاكم ثمّ لاذ بالفرار.

فعل شوقي الماجري، بكاميرته ما عجزت عنه لقاءات القمّة.. لقد جمع العرب في شاشة واحدة.

رحل شاعر الكاميرا العربية، ونعاه أقرب رفاقه وأصدقائه المخرج السوري ثائر موسى بقوله "رحلة عمر جمعتنا منذ المعهد العالي للسينما في بولندا، رحلة أبى القدر الأعمى إلا أن يضع نهاية لها في وقت كنت سأطلب من شوقي أن يخرج عملا لنا في الشركة التي أعمل فيها. السلام لروحك أيها الصديق الرائع الذي كثيرا ما أفرحتني نجاحاته، واليوم ينخلع قلبي على غيابه المبكّر".

العراقي المُجنّح ينثر أثره في الخاصرة العربية

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

أمام دعوة مؤسّسة روزا لوكسمبورغ شتيفتونغ – بيروت والقيّمة رشا صلاح، بالشراكة مع دار النمر للفن والثقافة إلى افتتاح "عراقيات" يحلو التأمل بما يستطيع أن "يختصره" هكذا حدث عن بلد مسكون بالثقافة والفن حتى الفيض.

ذكرت الدعوة أن هذا الحدث يهدف إلى تسليط الضوء على المشهد الفني الحالي داخل العراق وفي الشتات عبر قراءات لمحمود درويش تقدّمها رائدة طه كتحية من فلسطين إلى العراق. وسيتبع الافتتاح محاضرة للشاعر والروائي سنان أنطون، ولقاء مع الفنان ضياء العزاوي وعرضا لعمله "الروح الجريحة"، إضافة إلى سلسلة من العروض السينمائية، يليها لقاءات مع مخرجين عراقيين بارزين. وتختتم الفعاليات بجلسة سماع موسيقية عراقية مع الناقد الموسيقي سامر المشعل، وبحضور الملحن كوكب حمزة.

ومن المتوقّع أن يجذب هذا الحدث عددا كبيرا جدا من الزائرين. أولا، بدافع "الحشريّة" للتحقّق من مدى قدرة مؤسّسة مهمة كدار النمر أن تحيط بما لا يمكن إحاطته بـ"عراق" تخطّى بغناه الحضاري ومن خلال شتات أبنائه حدوده الجغرافية.

أما السبب الثاني، فيعود إلى تعطّش عدد كبير من اللبنانيين وغيرهم لرؤية وسماع النبض العراقي في قلب بيروت بشكل مُكثّف وحصري، وهو أمر لم تشهده العاصمة اللبنانية من قبل، على الأقلّ في السنوات العشرين الأخيرة.

ومن المتوقّع أيضا أن هذا الأسبوع العراقي سينجح في التأكيد على أن أقوى الحركات الثقافية هي تلك التي تتبلور في أرحامها الأصلية قبل أن تخرج إلى العلن، أو تُخرّج قسرا كما حدث من خلال أفواج متعاقبة من الفنانين والمثقفين الذين اضطروا لمغادرة بلادهم إثر حرب الخليج، وسقوط النظام وتفشّي حالة الجنون الدموي الذي يبدو أنه يبلغ أشدّه مؤخرا.

سبق أن قُدّمت بعض السهرات المبعثرة التي سلّطت الضوء على إرث العراق الموسيقي، ونظم "معرض الفن العراقي" سنة 2012 في بيروت، ولكن لتبقى غير مرئية تماما أمام اجتياح الفن السوري المعاصر قبيل أن يستعيد الفن اللبناني وتيرة حضوره إلى جانب الفن الفلسطيني.

كما يجدر ذكر أن إقفال صالة عرض كبيرة منذ أكثر من سنة تديرها الفنانة العراقية ليلى كبة كعوش كان خسارة هائلة قد يخفّف من وطأتها تنظيم الأسبوع العراقي في دار النمر.

و"آرت سبيس" التي أقفلت أبوابها، كانت إلى جانب عرضها لأعمال فنانين عرب، متخصّصة بعرض الأعمال الفنية العراقية إلى جانب تنظيم نشاطات وقراءات حول الإبداع العراقي.

ربما يشاركني الكثيرون في حزنهم على إقفال الصالة، لأنها الوحيدة أو شبه الوحيدة التي سمحت لهم كلبنانيين رؤية أعمال لم يشاهدوها من قبل إلاّ على صفحات الإنترنت. كما أتاحت لهم فرصة التحدّث مع فنانين عراقيين حول ما يعني لهم أن يكونوا إما فنانين لا يتذكرون وطنهم بشكل واضح لأنهم كانوا صغارا عندما رحلوا، وإما فنانين لم يعودوا إليه منذ رحيلهم عنه.

أكثر ما تأثّرت به خلال السنوات القليلة التي واظبت فيها على زيارة "آرت سبيس"، هو اتصالي بذلك الزخم العراقي المعهود الذي لم تشتّته حداثة، ولم تفكّك أواصره حروب وأزمات متلاحقة.

وصلت إلى قناعة أن أبرز ما يميّز الفن العراقي المعاصر وما بعد الحداثي أنه ليس بالرغم من تأثره بتيارات الفنون الغربية ووسائطها ظلّ عراقيًا، بل أنه ومن خلال استخدامه لتلك الوسائط اجترح خلاصا استثنائيا من هلاك الهوية التي لا تعني له فقط، بل تعني البلاد المجاورة له.

بلاد يتعثّر بعضها في الحفاظ على كيانها الثقافي وبعضها الآخر يتخبّط ويهيم في التخلّي عن مخزونه الأصلي ليقع في الفراغ أو التقليد.

خلال "عراقيات" بوسع المهتمين التعرّف على أعمال تجهيزية للفنان ضياء العزاوي بعنوان "الروح الجريحة: رحلة الدمار"، وهو تحية إلى 450 أكاديميا عراقيا، اغتالتهم عناصر مجهولة في ظل زمن الاحتلال الأميركي.

كما يتضمّن حدث "عراقيات" تجهيز فيديو للفنان محمود العبيدي الذي له باع طويل في الفن التشكيلي بعنوان "الزي الرسمي"، وتجهيزا آخر متعدد الوسائط للفنان عادل عابدين بعنوان "العودة إلى المستقبل"، وفيلما يحمل عنوان "أيام مجنونة" يرصد فيه بطله اللاجئ العراقي الذي يتحوّل إلى شبح في فنلندا.

> الحدث البيروتي يسعى إلى الإحاطة بما لا يمكن إحاطته بـ«عراق» تخطى بغناه الحضاري ومن خلال شتات أبنائه حدوده الجغرافية

وعادل عابدين فنان ما بعد حداثي بامتياز لا يتوانى عن استخدام أيّ وسيطة ولا أيّ تقنية حديثة لإيصال فكرته. أول ما تعرّفت على عمله كان من خلال صور لمنحوتة طائر حاد البنيان. يمامة ناصعة، ولكنها أقرب إلى نوع أسطوري من الطيور. استوحى الفنان هذا العمل من قطعة شعرية لابن سينا يتحدث فيها عن الشبه ما بين اليمامة والروح. وجاء العمل كردة فعل على حادثة قتل 90 طالبا عراقيا بثياب غير تقليدية رجما بالحجارة من قبل أصوليين. ثم شاهدت للفنان معرضا فنيا في صالة "تانيت" البيروتية.

من يومها وأنا أتابع عبر صفحات الإنترنت ما يقدّمه عابدين من أعمال أرسى عبرها قواعد تعبيره الفني ما بعد الحداثي ومطلق نظرته إلى العالم من خلال منظار عراقي شفاف وصلب.

منظار تماهى مع عدسة المنفى ليرصّف معظم الجسور الذي مدها إلى الآخر بقطع زجاج جارحة صُقلت حوافها بعنف تحوّلات الهوية، تارة برياح صحراوية سوداوية مُطعمة بإبر السخرية، وتارة أخرى بعصف حنين ثائر على نفسه.

قدمت مديرة دار النمر رشا صلاح الحدث الثقافي على أنه "احتفالية بيروت ببغداد نيابة عن كل المدن"، وأضافت مستخدمة كلمات الشاعر محمود درويش عميقة الأثر قائلة "على أمل أن نتحول إلى بلاد.. فأصبح أنا بغداد وأنت القدس، ويميل رأسي على كتفك قليلا فتزهر دمشق ويستقيم العالم".

أعمال عراقية تجترح خلاصا استثنائيا من هلاك الهوية